مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
Journal Vol 08, N° 02, Juin 2020, Version N°30, pp 41-56

تاريخ الاستلام (2020/01/30) تاريخ القبول (2020/04/21) تاريخ النشر (2020/06/30)

قراءة في أشعار الحب والوطن عند الشاعر مصطفى بن براهيم

Love and Homesickness in Algerian Popular Poetry Mustafa bin Brahim Poetry as a Sample

الدكتور: عبد القادر طالبي
مخبر الخطاب الحجاجي
المركز الجامعي نور البشير ـ البيّض ـ الجزائر etudtalbi@yahoo.fr

ملخص

تحتاج قصائد الشاعر مصطفى بن براهيم كغيره من كبار الشعراء الشعبيين، إلى قراءة متأنية وعميقة لفهمها وتحليلها، فلم يكن الشاعر يقول القصائد بدون تأمل أو عناية، بل تجده ينتقي الكلمات ويتخيّر المعاني التي تعطي صورة عن موضوع قصيدته، ثم تحيل القارئ إلى جملة من المفاهيم، تختلف مستوياتها بحسب مستويات التلقي للنص الشعري الشعبي. ولعل الحب والحنين الوطن من المواضيع التي شغلت حيزا كبيرا من شعر مصطفى بن براهيم؛ فالحب وما يتفرع عنه من قضايا العشق والغزل نجدها في شعره متناثرة في عديد القصائد، كما أن موضوع الحنين إلى الوطن أيضا من المواضيع التي شغلت حيزا لا باس به من شعر مصطفى بن براهيم.. تسعى هذه الورقة البحثية إلى تقديم قراءة تحليلية لشعر الحب والحنين إلى الوطن عند مصطفى بن براهيم، تمكن القارئ

المؤلف المرسل: عبد القادر طالبي، الإيميل: etudtalbi@yahoo.fr

من خلالها من اكتشاف خبايا شعره ورؤية الشاعر الفلسفية والفنية لهذين الموضوعين، فالحب يتعدى معنى العاطفة والوطن يتعدى معنى المكان.
الكلمات المفتاحية: مصطفى بن براهيم، الشعر الشعبي، الجزائر، الحب، الوطن.

Abstract:

The poems by the poet Mustafa bin Ibrahim, like many other popular poets, need careful and deep perusal to understand and analyze them. The poet did not say the poems without contemplation or care. Rather, you find him picking out the words and choosing the meanings that give a picture to the subject of his poem, then presenting the reader to a set of concepts, the levels of which differ according to the levels of poetic text recipient. Its levels vary according to the levels of reception of the popular poetic text. Perhaps love and homeland nostalgia are among the topics that filled a large portion of the poetry of Mustafa bin Ibrahim. Love and what is branching out from the issues of love and courteous poetry are found in his poetry scattered in many poems, just as the topic of homesickness is also one of the topics that occupied a significant space in Mustafa bin Ibrahim's poetry. This research paper seeks to provide an analytical reading of the poetry of love and homesickness to Mustafa bin Brahim, through which the reader was able to discover the mysteries of his poetry and see the philosophical and artistic poet's vision of these two subjects. Love goes beyond the meaning of emotion and the country goes beyond the meaning of the space.
Keywords:

Mustafa Ben Brahim, popular poetry, Algeria, love, homeland

تمهيد:

حاول الشاعر الشعبي الجزائري على مر العصور أن يعبر عن أحاسيسه من خلال أشعاره الشعبية، التي نقلت تجربته الشعرية والشعورية، وطرقت كل أغراض الشعر وفنونه المعروفة "وما من شك أن الشعر الشعبي الجزائري يمثل صورة من

صور التقليد للشعر العربي في كل الأغراض الشعرية"[1] فهو لم يترك غرضا أو موضوعا له صلة بحياة الشاعر إلا وكان له نصيب منه، قلَّ ذلك أو كثر.

ومن الموضوعات التي نظم فيها الشعراء الشعبيون في الجزائر قديما وحديثا، الحب والحنين إلى الوطن، وهما من الموضوعات التي نظم فيها بعض الشعراء أشعارا متفرقة خلال مسيرة حياتهم. وليس بالأمر الغريب أن يجمع الشاعر بين أشعار الحب وأشعار الحنين إلى الوطن في مدونة شعرية تترجم سيرة حياته، فكثير منهم مر بفترات العزّ والمجد وعاش حياة الترف واللهو، ثم انقلبت حياته بعد ذلك رأسا على عقب إلى حزن وألم في بلاد الغربة بعيدا عن الأحبة والوطن.

ونجد هذه التجربة مثلا عند الشاعر محمد بلخير الذي عاش في أيام عزه وترفه تجربة عاطفية مع محبوبته التي يقول عنها في قصيدة: "يا لزرق ولد الحمام"[2]

المَحْبُوبْ اللّي يْحَبني   نَرْوَى مَن عَينِيه ونَشْفَى

كِيمَا حَبَّيْتَه يْحَبْنِي   والثَّمْرَة تَسْتَاهَلْ الوْفَا

القَلبْ لِّي مَا يْحَبْنِي   حتَى انَا نَعْطِيه بَالقْفَا

تعرض الشاعر محمد بلخير إلى النفي إلى جزيرة كالفي لموقفه الرافض للاحتلال الفرنسي ودعمه للمقاومة الشعبية في منطقة البيّض، فتغرب عن وطنه وأحبته، مبديا هذا الشعور في أشعاره الصوفية، التي ناجى فيها الولي الصالح سيد الشيخ شاكيا له حنينه وشوقه إلى وطنه، في قصيدته المعروفة "الرحلة البيضا" التي قال فيها[3]:

سَرَّحْنِى يَا سِيدِي نْشُوفْ وَطْنَك ووْطَانِي   ونْسَالْ عْلَى الاحْبَابْ كَانْ مَا زَالُوا قُرْبَكْ عَادْ

أنا كُنتْ مْهَنِي مْنِينْ جَاو قْبَابَكْ جِيرَانِي   وانْتَايَا تَنْعَرْنِي بْهَمْتَكْ وفْضَايَل لَوْلادْ

وهذه التجربة الإنسانية نجدها تتكرر بشكل أخر عند الشاعر بن كريو الذي عاش أيام العز والترف في مدينته الأغواط، زاهيا بدنياه، منصرفا إلى الغزل وعشق النساء وحبهن. ومما اشتهر عنه من أشعار الغزل والحب قصيدة قمر الليل التي يصف فيها محبوبته قائلا[4]:

قَمْر الليل خْوَاطْرِي تَتْوَنَسْ بِيْه نَلْقَى فِيْه اوصَافْ يَرْضَاهُمْ بَالِي

يَاطَالبْ عَنْدِي حْبِيْبَه لِيْه شْبِيه مَنْ مَرْغُوبِي فِيْه سَهْرِي يَخْلالِي

انْبَاتْ انْقَسَّمْ فاَللِيَالِي نَنْظَر لِيْه يَفْرَقْنِي مَنه الحَذَّارْ التَّالِي

بعد هذه الأيام السعيدة التي عاشها بن كريو في مدينة الأغواط، تبدلت أيامه حزنا وألما بعد نفيه إلى مدينة المنيعة بسبب شعره الغزلي الذي شاع بين الناس، فصار يعيش على حنين العودة إلى الوطن بعدما درسته الغربة وفرقته عن أهله وأحبته، وهو شعور عبر عنه في كثير من أشعاره منها ما ورد في في قصيدة" والله ماني داري بفراق لحباب"[5]:

يَا رَاعِي السَلسَالَة مَا تْسِير بَوجَابْ كَان انتَ دَرْتْ الخَيرْ لاَزَم انـرُدوا

تَعمَل فِيَّ جَبْرَة اترُوحْ قَصَّابْ كِي تَوصَل لَقْواطْ سَابْقَكْ شَدُّوا

اكْمِي سَرّكْ رَاهْ اللّسانْ عْطَابْ يَاسَرْلَحْبَابْ وِيَاسْرِينْ مَنْ حَسْدُوا

سَالْ عْلَى المَبْرُوكْ مِيْر لَحْبَابْ لاَ تُشْرَكْ حَدّْ معَاه حَدْثُوا وَحْدُو

يَعْرَفْ ضُرِي وَدْوَاهْ وِينْ يَنْصَابْ مُولَى الظَّنة رَاهَا اسْرَارْنَا عَنْدُو

سَوَّلْ عَنهْ واصْفَاهْ مِيْر لَصْحَابْ فَكرهُم فِي اللّي رَاهْ مفَارَقْ بْلادُو

اذا سَالُوا عَنِي قُلْهُم كُل يَومْ بعْذَاب بِيْه فرَاقْ أم بْرِيمْ زَادْ تَنْكَادُ

وبعد، فهذه نماذج فقط من الشعراء الذين عرّضنا على أشعارهم في الحب والحنين إلى الوطن، لكننا لا يمكن أن نبرح هذا المقام دون أن نفسح في الحديث عن شاعر اشتهر أكثر ممن ذكرنا من الشعراء بأشعار الحب والحنين إلى الوطن، إنه الشاعر مصطفى بن براهيم الذي عاش هذه التجربة الإنسانية بشكل أعمق وأعنف مما عاشه غيره من شعراء عصره، لذلك سنسلط الضوء على أشعاره في هذا البحث بشكل مفصل وفق منهج وصفي تحليلي، نعرض فيه ما نظمه الشاعر في مدونته الشعرية في هذين الموضوعين، علّنا نصل إلى فهم عميق لهذه الأشعار وكيفية تجسيدها لخوالج الشاعر في المقامين، مقام الحب ومقام الغربة والحنين إلى الوطن.

1 - نبذة من حياة الشاعر مصطفى بن براهيم[6]:

ولد مصطفى بن براهيم سنة 1800 ميلادية في قرية بوجبهة نواحي مدينة سيدي بلعباس في الغرب الجزائري، من أسرة عريقة معروفة بالتدين والأخلاق النبيلة. ورث عن أبيه مهنة تعليم القرآن فكان يعلم الصبيان القرآن الكريم وتعاليم الدين الإسلامي ثم أصبح بعد ذلك قاضيا في مسقط رأسه يقضي بين الناس ويفتيهم في أمور دينهم ودنياهم.

عينته الإدارة الفرنسية بعد الاحتلال في منصب "قايد" على مجموعة من قبائل المنطقة التي ينحدر أغلبها من قبيلة بني عامر العربية التي استوطنت المنطقة مع بداية انتشار القبائل العربية في الجزائر.

هذه الوظيفة جلبت لمصطفى بن براهيم المتاعب وكانت المشاكل التي حدثت له بعد توليه هذا المنصب، سببا في خروجه مهاجرا رأسا إلى مدينة فاس في المملكة المغربية، والتي عاش فيها مدة خمس سنوات، عاد بعدها إلى أرض الوطن، ليعيش فيه ما بقي من عمره بعيدا عن صخب الرياسة وأوجاع الحكم.

توفي مصطفى بن براهيم سنة 1867 ميلادية ودفن بمقبرة المسيد في ضواحي مدينة زفيزف غرب مدينة سيدي بلعباس، تاركا مدونة شعرية كبيرة، جمع بعضها عبد القادر عزة في كتابه "مصطفى بن براهيم شاعر بني عامر ومداح القبائل الوهرانية، وجمع بعضها الآخر ناصر صبار في كتابه "مصطفى بن براهيم شاعر الحنين إلى الوطن"..

2-الحب في أشعار مصطفى بن ابراهيم:

لم تخل مدونة شعرية من مدونات الشعر الشعبي الجزائري المحفوظة من أشعار الحب، فلكل شاعر نصيب منها مع اختلاف في المقدار والشكل، فبعضهم مقل والأخر مكثر، ومنهم من رأى الحب عاطفة بين الرجل والمرأة فكانت أشعارهم غزلية تدور حول أوصاف المحبوبة والتعبير عن الشوق إليها، وهذا كان حال شعراء اللهو

والترف، أما شعراء الزهد والتدين فقد جعلوا الحب رابطة مقدسة بين العبد وربه، وأوقفوا أشعارهم للتصوف والمناجاة الإلهية.

وعند العودة إلى المدونة الشعرية لمصطفى بن براهيم نجد أن أشعار الحب عنده أخذت شكل الغزل والشوق إلى عشيقاته، فقد نظم أشعارا خاصة بكل محبوبة يتعلق بها في كل مرة، يعبر لكل واحدة منهن عن عشقه لها، ومدى إعجابه بأوصافها. ومن بين هذه الأشعار نذكر ما قاله في عشيقته الزهراء[7]:

حَالِي مَا يَشْبه بْحَالْ وصْفِي مَا تُوصْفَهْ بْصِيفَة
كُلْ لَيْلَة تَنزلْ حَالْ مَحْنَة تُغْدا وذِيْكْ تَلْفَى
مَن وَحْشْ صْفَاوة الهْلالْ مَشْتَاقْ خْيَالها الهَيْفَة
الحُب يزِيدنِي هْبَالْ العَشْقْ وَلا عْطَاشْ عَفَّة
سَلْبَتْنِي زَينَة الدْلالْ الزُهرَا حَمْرَة الشْفِيْفَة

وما قاله أيضا في عشيقته الحرية:

القَلبْ شَاشْ للحُريَة كَحْلَتْ لَهْدَابْ لِيْهَا نْرَوحُو يَاعَوْدِي
أَيَا نْرَوحُو بَالرَحْلَة شَوْر الاعْرَابْ نَجْعْ امْ الدُورْ رَاهْ مَسْدِي

يحاول الأستاذ التلي بن الشيخ في كتابه" دراسات في الأدب الشعبي" أن يقدم تفسيرا لهذا الشكل من الغزل ولهذه الرؤية الخاصة للمحبوبة في شعر مصطفى بن براهيم قائلا: "والملاحظ أن مصطفي بن براهيم يخالف ما هو شائع في الحياة العامة، فهو يجهر بوجود علاقة مع امرأة ليست زوجته... والشائع لدى الشعراء الشعبين أن يظل موضوع الحب سرا من الأسرار التي لا تعرفها إلا الخليلة... لأنه لا يعير وزنا للعادات والتقاليد بحكم مركزه الاجتماعي، وإما لأنه بلغ درجة من الضعف النفسي فأصبح غير قادر على كتم عواطفه وإخفاء تصرفاته"[8] ويخلص ـ أي التلي بن الشيخ ـ إلى حكم عام على شعر الحب عند الشاعر مصطفى بن براهيم يوجزه في ما يأتي: "ويمكن القول بأن مصطفى بن براهيم لا يرقى بالحب إلى مستوى عاطفة إنسانية تتجاوز إطار علاقة جسدية مكشوفة"[9]

قد يكون الأستاذ التلي بن الشيخ مصيبا في رأيه وحكمه على أشعار الحب عند مصطفى بن براهيم إذا كنا على علم أن كل ما نظمه الشاعر في حياته قد وصلنا كاملا صحيحا، وهذا ما لم يثبته الباحثون لحد الآن، لذلك نذهب إلى أن الشاعر في غزله ربما لم يقصد امرأة بعينها وأن كل ما نقل عنه من غزل كانت له مقاصد أخرى لم يصرح بها، والبحث والقراءة الجيدة لشعره في سياقهما التاريخي والأدبي كفيلان بكشف هذه المقاصد. لأن هذه الظاهرة كانت شائعة في عصره، ومعروف أن "... الكثير من شعراء الجزائر في العهد العثماني، حين يتغزلون لا يتحدثون عن امرأة بعينها ولذلك لا يجدون مانعا حين التغزل اعتماد عناوين ومسميات أخرى كالقصيدة أو الطبيعة، وما دام الموضوع والمصداق المعلن عنه ليس امرأة مصرحا بها فإن الشاعر لا يتحرج في الوصف الحسي الذي هو في الحقيقة يصدق على مفاتن المرأة ولا يصدق تماما على الموضوع الذي يعلن عنه الشاعر سلفا كمصداق صوري يريد وصفه"[10].

ملاحظة أخرى نبغي أن نشير إليها في أشعار الحب عن مصطفى بن براهيم هي غياب ما يدل على علاقته العاطفية بزوجته في أشعاره، فلم نعثر فيما بين أيدينا من أشعار ما يذكر شيئا عنها، وحتى في تلك التي ذكر فيها أولاده محمد، الهاشمي وعبد القادر وابنته "خيرة" هذه الأخيرة التي يذكر حبه لها وشوقه إليها في قوله، دون أن يشير إلى ذكر أمها وهو ما نراه في الأبيات التالية[11]:

خَيْرَة بَنْتِي سَلَّمْ عليْهَا قُلْ لِهَا أنَا جِيتْ لَكْ بَشَّارْ

مَنْ عَندْ لِّي رَاحْ واخْلاهَا خَلاّكْ يتِيمَة ووَجْهَكْ بَارْ

عَزّْ البَنتْ الاَّ مْعَ بُوهَا كَان بْلا بُو طِيبْهَا يَمْرَارْ

ويمكن أن يقبل هذا التجاهل المتعمد لذكر العلاقة العاطفية مع الزوجة إذا حاولنا أن نبرر هذا الموقف بسلطة الأعراف والتقاليد التي تحكم القبائل العربية البدوية، ومنها قبيلة بني عامر التي ينتمي إليها الشاعر. لكن هذا الموقف لن يجد له مبررا في نفس السياق مع ما تفرضه هذه السلطة الاجتماعية في نظام القبيلة العربية من تقدير واحترام للمرأة المنجبة للأولاد "ولقد أفادت المادة الإثنوغرافية في

جميع الحالات في أهمية الإنجاب خاصة الذكور وارتفاع مكانة المرأة التي تتمتع بالخصوبة ويتضح هذا في أقوالهم المتواترة وفي الأمثال الشعبية: "اللِّي ولَدْ مَا مَاتَشْ"، "اللِّي مَا يْغَلّيهَا وَلدهَا مَا يْغَلِّيهَا جَلدْهَا" (المقصود بهذا المثل أن المرأة التي لا يرفع مكانتها أولادها لن يرفع مكانتها جمالها) [12]، وعليه كنا ننتظر أن يشير الشاعر إلى حبه لزوجته في أشعاره تقديرا واحتراما لها، وهو ما لم يحدث ولم نجد لهذه الأشعار أثرا في مدونته الشعرية.

3-الحنين إلى الوطن في أشعار مصطفى بن براهيم:

إن كلمة الوطن ترتبط بالمكان أو الحيز الجغرافي الذي يتعلق به الإنسان إما لأنه مسقط رأسه أو لأنه مقر إقامة له، لكن هذا المعنى يأخذ بعدا آخر عندما ينظر إليه من زاوية علاقة الإنسان بالمكان ضمن الجماعة أو العشيرة فيكون الوطن بمعنى "المنزل الذي يحل به المرء وينزل فيه مع أهله وعشيرته، لأن تجمع العرب قديما في بقعة ما، كان على أساس بشري قبلي لا على أساس جغرافي مكاني"[13]. وبقى هذا المفهوم سائدا لفترة طويلة من حياة العرب "ولما استقرت القبائل في القرى والمدن صار مفهوم الوطن واضحا هو الأرض والبلد بحدوده وأهله "[14] ومن ثمة تغير مفهوم الوطن تغيرا جذريا في عقل الإنسان العربي، وتغير أيضا شعوره نحو المكان -بمفهوم الوطن - والتعبير عنه في أحاديثه وأشعاره.

ولا يقتصر التعبير عن الحنين إلى الوطن على العرب دون غيرهم من الأمم لأن "الحنين إلى الأوطان ظاهرة إنسانية عامة في نفوس البشر، وإن كان حب الأوطان عند العرب أكثر وضوحا لأن الشعر سجل هذه الظاهرة، منذ الجاهلية وحتى العصر الحديث، مع اختلاف يسير بين البدوي والحضري"[15]، وهو ما نلمسه من اختلاف في التعبير عن هذا الشعور بين الشعراء الشعبيين وشعراء الفصيح.

ولقد شاع في الشعر الشعبي الجزائري شعر الحنين إلى الوطن، كتعبير عن ارتباط الشاعر بوطنه وحبه له. ونجده كثيرا عند الشعراء الذين تغربوا عن أوطانهم بعد نفيهم أو هجرتهم منه لأسباب قاهرة، ولأن شاعرنا عاش الغربة عن وطنه بعدما هاجر مظطرا إلى مدينة فاس، تحضر عاطفة الحنين إلى الوطن في شعره بشكل

واضح، ونجد فيها تعلقه به، لأن الوطن يذكره بالقبيلة والأهل والأحبة، وهو في الوقت ذاته الحيز الجغرافي المقابل للمسافة الزمنية التي تشكل نقاط الذكريات السعيدة في حياته.

وقد عبر مصطفى بن براهيم عن حنينه إلى وطنه في أشعاره تارة بشكل صريح يبوح فيه بشوقه وحنينه إليه وتارة أخرى بشكل ضمني يلمح فيه إلى حنينه إلى الوطن من خلال حنينه إلى الأهل والأحبة والمكان الذ ي جمعهم به.

الشكل الأول: التصريح بالحنين إلى الوطن.

ومن أمثلة الأشعار التي صرح فيها مصطفى بن براهيم بشوقه وحنينه إلى وطنه بشكل مباشر ما جاء في قصيدة: "آالميلود آالميلود" [16]

هَمْ اجْلَسْ امعَايَا نَشْكِي لَك بَمْحَانِي
غَيْر أنت وَانَايَا غُربَة فِي لَوْطَانِ
الدَّنيَا مْوَاليَة يَا وِيْحْ البَرَّانِي
مَا تَسْوَى شِي سَاويَة يَبْقَى مَاله دَانِي

...

وِيْن انْصِيب اهَوايَا فَارَقْتْ الاخْوَانْ
نَبْكِيهُم مَقْوَايَا نَّوْحُوا يَا لَعْيَانْ

ويريد الشاعر من خلال هذه الأبيات أن يصف حنينه للوطن من خلال التعبير عن حالة الهم والحزن الذي أصابته في الغربة، فجعلته ينوح ويبكي حرقة عليه.

ويجسد أيضا حجم معناته في الغربة وشدة حنينه إلى وطنه في قصيدة" تفكرت لوطان" التي يقول الشاعر فيها:

اعييت صابر وسفايني راحلة هسيت من وطني ايام وليالِيْ
امحان قلبي كي جات متاصلة الوحش والحب فرقة رجالِيْ
نوبات صاحي واىامي قايلة والضحك بعض النوبات يحلى لِيْ
نوبات مغيم ودموعي سايلة واش ينسي ذاك الند من بالي

ويعلق الباحث بشير بويجرة على هذه الأبيات قائلا:

"إن الأبيات الأربعة ترتكز في بعدها الدلالي على جملتين اثنتين هما "اعييت صابر" و"هسيت من وطني" اللتين تدلان على غربة الشاعر... لأن جملة "عييت صابر" تدل على طول المعاناة والغبن كما تدل جملة "هسيت من وطني" على ذلك الارتباط القوي بين الشاعر وبين والوطن"[17] وهو ارتباط نابع من شعور صادق لا يمكن أن يتصنع فيه الشاعر كل هذه المعاناة.

وفي موضع آخر من نفس القصيدة (قلبي تفكر الاوطان) يقول الشاعر في نفس السياق [18]

قَلْبِي اتْفَكَّرْ الاوطَانْ   الزَّهْو ورْكُوبْ الخَيْل

ارْعِيْتِي والفُرسَانْ   خَوْدَاتْ فِي حرُوجْ تمِيْل

مَحْزُمِين لَلفتَانْ   شُبَان يَلْغُو بَكْحِيْل

يعلق الأستاذ التلي بن الشيخ على هذه الأبيات منتقدا فتور عاطفة حب الوطن عند الشاعر بقوله: "وهكذا يتأكد أن حب الوطن لدى مصطفى بن براهيم يرتبط بحياته الخاصة فهو لا يفكر إذا كان مواطنوه يعيشون في تعاسة وبؤس، أو هم في نعيم وخير وإنما يكتفي بوصف حالته... وبهذا يصبح فخر مصطفى بن براهيم بقومه بعضا مما يجب على الرعية وليس واجبا وطنيا تفرضه حياة المواطنة، وتحتمه روح الكرامة وتساهم به الرعية في بناء حياة الحرية والعزة" [19]

قد يكون الأستاذ مصيبا في بعض ما ذهب إليه في هذا الموقف، لكننا نستسمحه في مراجعة ما ذهب إليه من عدة جوانب:

-الجانب الأول متعلق بفهم تأويل لفظ الرعية:

إذا حاولنا أن نعطي للفظ "الرعية" تأويلا غير الذي ذهب إليه الأستاذ؛ فيمكن أن يوحي اللفظ بعلامات الشعور بالمسؤولية اتجاه هؤلاء الناس، فالشاعر يعتقد أنه ما زال في موضع "القايد" الذي يهمه أمر القبيلة أو العرش، وهو في هذا الموقف يحن إلى زمن رخائها وسعادتها ويؤكد العلاقة الوطيدة بينه وبين قبيلته.

الجانب الثاني متعلق بحياة الشاعر وما ذكر عنه في المصادر التاريخية لمنطقة سيدي بلعباس: وهنا يذكر الباحثون في تاريخ منطقة سيدي بلعباس وقبائلها أن قبيلة بني عامر -التي ينتمي إليها الشاعر- لها تاريخ حافل في الوطنية ومقاومة الاحتلال، ويشهد لأبنائها بالتضحية والمقاومة. والدلائل على ذلك كثيرة خاصة ما ذكر عن مقاومة الأمير عبد القادر وما جاء في خطبة مبايعته يوم 22 نوفمبر 1883 في واد الخصيبة حيث قال الأمير عبد القادر بعد أن حمد الله وصلى على نبيه "إن أهل معسكر وشرق وغرب غريس وجيرانهم وخافائهم بني شقران، البرجيين، وبني عامر وبني مجاهر قد وافقوا بالإجماع على تعييني وبناء عليه انتخبوني لإدارة حكومة بلادنا"[20]. ومعلوم كذلك أن المصادر الغربية التي أرخت للثورات الشعبية في الجزائر تذكر مشاركة قبيلة بني عامر بأعداد كبيرة في المعارك التي خاضها الأمير عبد القادر ضد الاحتلال الفرنسي[21].

والجدير بالذكر أننا عندما نعود إلى مذكرات الأمير عبد القادر لن نجد فيها ما يشير إلى موقف العداء أو الخيانة لشخص الشاعر مصطفى بن براهيم للأمير رغم أنه كان يتولى منصب القايد في قبيلته في تلك الفترة.

بالإضافة إلى هذا تعتبر أشعار مصطفى بن ابراهيم من المصادر المهمة في دراسة تاريخ قبائل بني عامر في منطقة سيدي بلعباس وفي هذا الموضوع يقول الباحث حنيفي هلالي (وهو باحث أكاديمي في تاريخ المنطقة): "إن قراءة متأنية لما جاء في أشعار مصطفى بن ابراهيم تجعلنا نجزم بأن شعره يعطينا صورة حقيقية لبطون قبائل بني عامر أو التي سكنت سهول مكرة (سيدي بلعباس) " ويقول أيضا عن علاقة مصطفى بن براهيم بقبيلته والمقاولة الشعبية: "... فكان على ماقيل، مدمنا على الخمر، وزيرا للنساء وخارجا عن الأعراف الاجتماعية، لكنه ارتبط بالمقاومة وبقبيلته العتيدة بني عامر"[22]. ويقول عنه الباحث عبد الكريم ولد النبية "مصطفى بن ابراهيم شاعر مميز، كان بطل قبيلة بني عامر، لقد استطاع أن يخلق أسطورة حقيقة حول وجوده.... لقد كان أيضا شاهد عيان فالشاعر صادق حينما ينظم أشعاره على نحو يجعلها مهمة في حياة شعب ما، وتعني هنا حياة قبيلة "[23].

-الجانب الثالث متلعق بالذاكرة الثقافية الشعبية للمنطقة:

ولعل ما وصلنا من أشعار مصطفى بن براهيم هو جزء مما بقي في الذاكرة الشعبية للمنطقة وليس كله، لذلك يرجح أن تكون هناك قصائد للشاعر لم تصلنا، تعمد هو أو غيره عدم نشرها خوفا من اكتشاف علاقته بثورة الأمير وهو ما يعرض حياته للخطر ويؤثر مباشرة على علاقته بالمقاومة ودعمه لها في الجزائر أوفي منفاه في فاس. وهذا الموقف مشهور في تاريخ الثورات الجزائرية عند كثير من الشخصيات التي عملت مع الإدارة وخدمت القضية الوطنية سرا داخل وخارج الجزائر.

ويدعم هذا الرأي الذاكرة الشعبية نفسها، فهي لم تحتفظ بأخبار شاهدة على خيانة الشاعر للوطن وثورة الأمير عبد القادر، بل العكس من ذلك توارثت قبيلة بني عامر في منطقة مصطفى بن ابراهيم حكايات شعبية عن زيارة الأمير عبد القادر للشاعر في منزله أكثر من مرة، مما يوحي بالعلاقة الطيبة التي كانت تجمعهما.

الشكل الثاني: التلميح إلى الحنين إلى الوطن من خلال الحنين إلى الأهل والأحبة.

لمح الشاعر مصطفى بن براهيم إلى حنينه إلى الوطن من خلال أشعاره التي ذكر فيها حنينه إلى أهله وأحبته، لأن ذكرهم يعيد إلى ذهنه الأيام السعيدة التي عاشها معهم في ذلك المكان و"إن معايشة مكان جميل ونقل تجربته يثير في الذهن مباشرة هناءة ذلك المكان، والعكس صحيح، فسلسلة الإحباطات التي يعاني منها المرء في مكان ما تجعل من هذا الأخير عدوانيا"[24].

ومما ذكره في حنينه إلى قبيلته وأهله حنينه إلى مدينة زفيزف المخلدة لمجده وعزه الذي يفخر بها أهله من بني تالة، وفي هذا الموضوع يقول الشاعر[25]:

وَطْنِي زفِيْزَفْ واهْلِي بنِي تَالَة   والحُكمْ فِي بَلعبَّاسْ يَحْلالِي

قَهوة وكُرسِي ونَاسِي امقَابْلَة   والشُربْ بَعْد مُرّْ يَحْلالِي

وعلاقة الشاعر بقبيلته التي يحن إليها وإلى مواطنه جعلته يتذكر عاداتها وتقاليدها ويشده الحنين إليها لاستعادة تلك اللحظات السعيدة بينهم، خاصة أيام

الوعدة في بني سليمان ومهاجة التي عبر عن حنينه إليها في قصيدة "هودج مامة تق علي" قائلا[26]:

شَاشْ القَلبْ واشْتَاقْ لولادْ سليمَانْ وتْوَحَشّْت أنَا رجَالِي

الخَطْرَة عَوْلَتْ وكْتَبتْ العُنوانْ رَانِي قَادَمْ يَا ابطالِي

نَحْضَر للوَعْدَة ونزُور أهلْ البُرهَانْ انشُوفْ امْهَاجَة بَنْجَالِي

لمح الشاعر أيضا لحنينه إلى وطنه من خلال تعبيره عن حنينه إلى عائلته التي يحضر ذكرها مع ذكر منطقة بوجبهة التي يسكنونها، وهو ما ذكره في أشعاره التالية[27]:

لِيْك ايْبَانْ بلاصْ بُوجَبْهَة فِي وادْ المَبْطُوحْ ذِيْك الدَّارْ

...

خَيْرَة بَنْتِي سَلَّمْ علِيْهَا قُلْ لهَا أنَا جِيتْ لَكْ بَشَّارْ

مَنْ عَندْ لِّي رَاحْ واخْلاهَا خَلاّكْ يتِيمَة ووَجْهَكْ بَارْ

عَزّْالبَنتْ الاَّ مْعَ بُوهَا كَان بْلا بُو طِيبْهَا يَمْرَارْ

اذَا حَيّ اتْعِيشْ بَهْنَاهَا تَحْلَفْ بَحيَاتَه تعُودْ اخيَارْ

مُحَمَّدْ والهَاشْمِي خُوهَا عَبْدَ القَادَركَاملِين اصغَارْ

مَا يَقْدرُوا شِي على النَّدْهَة مَا لِيهُم احْنِينْ يَا قَهَّارْ

والشاعر هنا يستحضر صور أبنائه وهو مجتمعون، ويركز على صغرهم وضعفهم على القيام بحاجاتهم في غيابه، وهو ما ترك في نفسه ألما شديدا لفراقهم.

يحضر الحنين إلى الوطن عند الشاعر أيضا كلما حضره ذكر الأقارب والأحبة، فصورتهم ملتصقة بالمكان والحيز الذي يجمعهم، وكلما حضر ذكرهم حضر الوطن وشده الحنين إلى ذلك المكان الذي يسعد المرء فيه بلقائهم، وفي هذا يقول الشاعر[28]:

تّشرُبْ كِيسِانْ المْدَامْ لَغْنْا تِلْقَى انتَ رجَالِي

لَخُوتِي عَبد السّْلامْ بَلْقَاسَم والحْبِيبْ وعلِي

واذَا سَالُوكْ بَالتْمَامْ مِيل البَشِيرْ والمَحْلِي

تسلَّمْ علَى ابنْ اليْمَامْ   دَحمانْ والزَايْدَة اهْبَالِي

مَنها مَاطَابْ لِي منَامْ   مَنكُم اتْغَيرَت احوالِي

يحاول الشاعر أن يغيب عن وعيه ليذهب إلى عالم متخيل وينتقل إلى ماض يجد فيه السلوى من فراق الإخوة والأحبة الذين يذكرهم بأسمائهم واحدا واحدا، معبرا عن شوقه لهم وحنينه إلى الاجتماع بهم، وهذه اللحظة الحالمة تفرض حضور المكان الذي يختزل الوطن الذي يمكنه أن يجمعه بهم.

خاتمة: الحديث عن موضوعي الحب والحنين إلى الوطن في أشعار مصطفى بن براهيم، هو حديث عن عالم جمالي وفني أبدع فيه الشاعر فقد فتح له العشق والترف باب الحب، كما فتحت له الغربة باب الحنين إلى الوطن، وفي البابين معا تجلت القوة العاطفية للشاعر، وظهر حسه المرهف وتفاعله العاطفي في حالة نشوته وحزنه أيضا.

لقد تبين لنا أن أشعار الحب عند مصطفى بن براهيم وليدة فترة عاش فيها الشاعر حياة عز رياسة وترف، وعكست أشعاره الغزلية شخصية المترف، الهائم بالنساء ومجالس اللهو، الذي عبر عن حبه لعشيقاته، مصرحا بأسمائهن وصفاتهن، وهو بذلك قد اختصر علاقته بالمرأة في هذا الشكل المنحرف الذي تغذيه الشهوة المحرمة، ولم يظهر عنده الحب المباح للزوجة التي غاب ذكرها في شعره.

أشعار الحنين إلى الوطن عند مصطفى بن براهيم أقوى من أشعار الحب عنده؛ لأنها نابعة من تجربة صادقة خلفتها رحلة الغربة والمعاناة، كما أنها سمحت للشاعر بالتعبير عن حنينه للوطن بأشكال مختلفة، فتارة يعبر عنه صراحة، وتارة أخرى يبثه من خلال الحنين إلى القبيلة والأسرة والأحبة كلما تذكرهم وحنّ إليهم..

يظل شعر مصطفى بن براهيم في حاجة إلى مزيد من البحث لفهمه، من خلال قراءات متعددة، بعيدا عن التأويلات المسبقة أو الأحكام الجاهزة، التي لا تخدم النص وقيمته الأدبية؛ لأن الشعر مهما كان ناظمه ومهما تقدمت الفترة التي نظم فيها، يحتاج دائما إلى قراءات وليس قراءة واحدة، وتحليل يأخذ بعين الاعتبار كل الجوانب الثقافية والاجتماعية التي أثرت في حياته ومواقفه، لأن القصيدة مهما ضيقنا عليها

بمفاهيمنا المختلفة باختلاف مرجعياتنا الفكرية، تظل تحمل قيمتها الثقافية والفنية التي لا تتغير بتغير العصور والأفكار.

مراجع البحث وإحالاته:

1- التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، ب ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ب ط ص 87

2- العربي بن عاشور، أشعار محمد بلخير شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة، ب ط، دار الشروق للطباعة والنشر، الجزائر 2008 ص306

3- االمرجع نفسه: ص217

4- شعيب ابراهيم، التوخي لجمع شعر عبد الله التخي (ديوان بن كريو)، ط1، الأغواط، 1998 ص107

5- المرجع نفسه: ص 75

6- للاطلاع على تفاصيل أكثر من حياة الشاعر يرجى العودة إلى الكتب التالية:

- عبد القادر عزة: مصطفى بن براهيم شاعر بني عامر ومداح القبائب الوهرانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1977.

-التلي بن الشيخ، دراسات في الأدب الشعبي، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982

-ناصر صبار؛ مصطفى بن براهيم شاعر الحنين إلى الوطن، ب ط، دار الغرب الجزائري وهران 2002

7- عبد القادر عزة: مصطفى بن براهيم شاعر بني عامر ومداح القبائب الوهرانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1977، ص76

8- التلي بن الشيخ، دراسات في الأدب الشعبي، ب ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ب ت ص 95

9المرجع نفسه ص109

10- جمال سعادنة، الشعر الجزائري في العهد العثماني موضوعاته وخصائصه الفنية (مخطوط) أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة 2010-2011 ص165

11- ناصر صبار، مصطفى بن براهيم شاعر الحنين إلى الوطن، ب ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران ب ت ص 84

12- نصيرة شافع بلعيد، بوترية وهيبة المرأة والجسد في الثقافة الشعبية، مجلة الآداب واللغات (مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الجزائر 2) مجلد 08 عدد 12 سبتمبر 2015 ص170

13- عزيزة مريدن، القومية والإنسانية في شعر المهجر الجنوبي، الدار القومية للطباعة، مصر 1966 ص 64

14- يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي ط1، دار مجلاوي للنشر والتوزيع، الأردن 2008 ص 12

15- المرجع نفسه ص5

16- ناصر صبار، مصطفى بن براهيم شاعر الحنين إلى الوطن (مرجع سابق): ص 62

17- محمد بشير بويجرة، تجليات الأنا والغبن في الخطاب الشعري الشعبي محاولة في رسم معالم الذات والآخر قلبي تفكر الاوطان انموذجا مجلة إنسانيات (مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز crasc وهران -الجزائر) عدد 17-18 ديسمبر 2002، ص 80 -81

18- المرجع نفسه: ص110

19- التلي ين الشيخ، دراسات في الأدب الشعبي (مرجع سابق): ص132

20-شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974، ص59

21 ينظر- TABET (R. A) Histoire d'algerie ,sidi belabes de colonisation a la guerre de liberation ,ENAG,Alger 1999 pp 55-56

22- حنيفي هلالي العرش والقبيلة في منظومة الشعر الملحون لمصطفى بن براهيم، ص6

صفحة حنيفي هلالي على موقع www. researchgatet

https: //www. researchgate. net/publication/306429954

23 - Karim oueldennebia: Mostefa ben Brahim une mémoire omise, une histoire tronquée

Site webe: https: //www. bel-abbes. info

Url: https: //www. bel-abbes. info%2Fle-lundis-de-lhistoire-mostefa-ben-brahim-une-memoire-omise-une-histoire-tronquee%2F

24-فتيحة كحلوش، بلاغة المكان: قراءة في مكانية النص الشعري (مرجع سابق): ص27

25- ناصر صبار، مصطفى بن براهيم شاعر الحنين إلى الوطن (مرجع سابق): ص111

26المرجع نفسه 63

27- المرجع نفسه ص84

28- التلي ين الشيخ، دراسات في الأدب الشعبي (مرجع سابق) ص95